عبّاس بيضون

حُجُرات

دار الجديد

عبّاس بيضون

حُجُرات

دار الجديد

© دار الجديد ١٩٩٢
الطبعة الأولى
☎ : ٣٤٣٧٥٢ ـ ٨٦٧١١٢
ص. ب: ١١/٥٢٢٢ بيروت ـ لبنان
التَّنضيد: علي حمدان

إلى نجلاء، أختي

ولادة

- ١ -

سَقَطَ عَلَى ٱلحَافَّةِ زَيْتٌ قَلِيلٌ
وَلَمْ أَكُنْ وُلِدْتُ
كَانَ ٱلحَجَرُ ٱلكَبِيرُ يَنْعَسُ فِي ٱلجِدَارِ
ضَوءٌ بَارِدٌ، بِٱلكَادِ، مَرَّ عَلَيَّ
وَٱخْتَفَى فِي لَمَعَانِ ٱلآنِيَةِ
ٱلَّتِي كانتْ تَصْفَرُّ
مِنَ السَّهْوِ
وَمِنَ ٱلأَلَمِ ٱلَّذِي فَرَّ مِنْهَا

- ٢ -

أَلمَرْأَةُ وَيَدَاهَا فِي ٱلعَجَلَةِ
لِحى أَجْدادٍ كَثِيفَةٌ وأُخرى زَائِفَةٌ
عَصَافِيرُ ضَارَّةٌ وَمُلَوَّنَةٌ بِلا حِسَابٍ
تَتَسَلَّقُ إِلَيْها

كَانَ لَهَا خَصْرُ أُخْتٍ صَغِيرَةٍ
تَخْرُجُ مِنْ وَسْطِ ٱلعَوْسَجَةِ
كَانَ لَهَا جِذْعُ خَالَةٍ تَحْصُرُ ٱلمَدِينَةَ فِي غِربال
وَتَحْلُمُ بِفَأْرَةٍ فِي بَطْنِها

مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ هَنَاكَ
سِوى لَوْحَةٍ مَصْبُوبَةٍ
لِتَهْرِيبِها عَبْرَ ٱلحُدُود

عِنْدَمَا ٱسْتَطَاعَ أَصْغَرُ ٱلأَطْيَافِ
أَنْ يَقِفَ فِي ٱلأَسْتُديو ٱلمُعْتِمِ طَويلاً
وَيَتَأَمَّل

إِلَى أَنْ تَحَوَّلَ إِلَى دُودَةٍ
دَخَلَتْ ظِلالٌ كَامِلَةٌ لِشُيُوخٍ وَحَيَوَانَات
فِي إِثْرِهِ
وَهَوَى سَوَادُ ٱلقَنْطَرَةِ
وَجَفَّلَ الجَالِسِينَ هُنَاكْ
مَعَ ٱلخَيَالاتِ الزُّجَاجِيَّةِ لِكُوُوسِهِم
وَالدُّخْنَةِ ٱلحَيَّةِ
ٱلَّتِي تَتَصَاعَدُ مِنْهَا

- ٣ -

حَضَرُوا مِنْ حِجَارَةِ ٱلبَيْتِ
ٱلَّتِي ٱلْتُقِطَتْ مِنْ قِلاعٍ وَإِسْطَبْلاتٍ مَهْجُورَة
لَقَدْ ٱسْتَمَرَّتْ هُنَا تَخْدُمُ الشُّرُفَاتِ وَٱلحَدَائِقَ
ٱلَّتِي نَزَحَتْ عَنْهَا
وَحِينَ نُسِيَتْ أَخيراً
لَمْ تَعُدْ تَعْرِفُ أُولاءِ ٱلَّذِينَ يَتَجَوَّلُونَ عَلَيْهَا
كُلَّمَا سَقَطَ عَمُوْدُ الشَّمْس

رُبَّمَا لَمْ يَكُنِ ٱلقِنْدِيلُ سِوى دَعْوَةٍ
لِخُرُوجِ ٱلأَطْيَافِ ٱلَّتِي تَكَاثَرَتْ
مِنْ حَمَاقَتِهَا
وَٱلَّتِي تَتَزَاوَرُ طَوَالَ ٱليَوْم

رُبَّمَا كَانَ ٱلقِنْدِيلُ مَحَطَّةَ السَّهْوِ
تَتَقَاطَعُ الطُّرُقَاتُ فِي الضَّبَابِ
كَذَلِكَ ٱجْتِمَاعُ النِّيَامِ
أَلْخَرَفُ يُحَرِّرُ ٱلمُقَاطَعَاتِ
أَلأَعْمَالُ ٱلهَالِكَةُ تَحْيَا مِنَ ٱلآنَ بِالنُّورِ
بَيْنَمَا الرِّيحُ تَنْقُلُ ٱلمُرَبَّعَاتِ وَٱلفَهَارِس

- ٤ -

كَانَتِ ٱلمَرْأَةُ تَجْتَازُ ٱلآنَ عُلَّيْقَةً
وَتُشِيرُ بِعَجَلَتِها
لِلأُخْتِ الصَّغِيرَةِ
بِأَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا

إِنَّهُ شَعْرُ ٱلأَحْشَاءِ
وَالضَّوْءُ ٱلَّذِي يَنْظُرُ مِنْ فُتْحَةِ ٱلقِفْلِ
سَيَحْفُرُ شَكْلَهُ هُنَاكَ
بَعْدَ ذَلِكَ
حَبَّةُ الرَّمْلِ وَٱلحَيَوان

أَلفَانُوسُ يُبَرْقِعُ ٱلحُجْرَةَ
ٱلَّتِي تَتَقَوَّسُ ٱلآنَ كَنُوْرٍ مُضَلَّع
إِنَّهُ يَنْفُخُ فِيها نَفْطَهُ ٱلوَسِخَ
وَبُخَارَهُ
كَأَنَّ ٱلَّذِي يَظْهَرُ
قَفَا ٱلغُرْفَةِ
وَبِطَانَةُ أَشيائِهَا

يَظْهَرُ قَليلاً شَعْرُ ٱلجِدَارِ
أَلرِّجالُ يَنْظُرُونَ بِعُيُونِ مَاشِيَتِهِم
وَدَمَامِلِهَا
وَرَائِحَةُ ٱلجُلُودِ تُوْشِكُ أَنْ تَهُبَّ مِنْهَا
جَالِسِينَ هُنَاكَ بِلِحَاهُمْ
وَسِحَنِهِم ٱلَّتِي لَحَسَتْهَا ٱلأَشْبَاح

أَلنِّسَاءُ مَصْرُورَاتٌ فِي كَوْمَةٍ
يَنْفَصِلُ عَنْهَا كُلَّ لَحْظَةٍ خَيَالٌ نَحِيلٌ
لِيُحَرِّكَ ٱلإِبْرِيق

- ٦ -

أَلمِدْخَنَةُ كَانَتْ عُشّاً / كَذَلِكَ
الطَّراريحُ وَجُلُودُ ٱلخِرْفَانِ
أَلأَشْيَاءُ مَكْرُورَةٌ / وَهَا هِيَ تَنَامُ فِي خِيطَانِهَا
أَلَّذِي يُنَقِّلُ ٱلفَانُوسَ / أَدَارَ ٱلغُرْفَةَ إِلَى
نَاحِيَةٍ أُخْرَى
تَارِكاً ٱلقَشَّ وَلُعَابَ ٱلحَشَرَاتِ وَٱلخِيطَانَ
تَخْتَلِطُ
تَارِكاً عَلَى ٱلحَائِطِ ٱلمُظْلِمِ / أَشْخَاصاً
وَحَيَوَانَاتٍ
مِنْ شَعْرِ الطَّرِيقِ نَفْسِهَا

كَانَتِ ٱلمَرْأَةُ تَشْعُرُ بِهِم يَهْبِطُونَ مِنْ رَأْسِهَا/
وَيَخْتَفُونَ فَوْراً
هِيَ نَفْسُهَا لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ / أَيْنَ نِهَايَةُ نَفَقِهَا
كَانَ طَرَفُهَا بِالتَّأْكِيدِ / فِي الدَّوَّامَةِ
وَكَانُوا مِنْ هُناكَ يَدْخُلُونَ / بِدُوْنِ أَنْ تَشْعُرَ بِهِم
وَبِدُونِ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَ / أَيْضاً
فِي ٱلعُلَّيْقَه

كَانَتْ تَعْرِفُ أَنَّ ٱلمَطَرَ خُيُوطٌ فِي دَاخِلِها
ٱلَّذِي يَتَقَلَّبُ
خَيْطاً خَيْطاً
فِيمَا شَعْرُ ٱلفَجْرِ بِوَفْرَةٍ
وَشَعْرُ ٱللُّجَّةِ
كَانَ جَسَدُهَا يَتَقَلَّبُ أَيْضاً
وَرُبَّما يَنْسُلُ
ذَلِكَ يَحْدُثُ كَمَا تُحِسّ. تَحْتَ عِيْنِهَا مُبَاشَرَةً
ضَوْءُ السِّراجِ الضَّعِيفُ يُساعِدُهَا
أَنْ تَعْبُرَ بِصَمْت

- ٨ -

كَانَتْ تَنْتَظِرُ أَنْ يَصْعَدَ ٱلمُتَهَكِّمُونَ
وَيَتْرُكُونَ عَلَى ٱلبَابِ
ٱللَّقِيطَ ٱلَّذِي يَرْتَجِفُ مِنْ تَهْرِيجِهِمْ
كَانَ ٱلفَانُوسُ ٱلآنَ فِي وَسْطِهَا
وَهِيَ تَشْعُرُ بِٱلبُيُوضِ
تَتَقَلَّبُ
فِي أَعْشَاشِ ٱلسَّقْف

جَاؤوا بِكَثْرَةٍ
جَرَوا حَتَّى فِي نَفْسِهَا
جِنِّيُّ ٱلبِئْرِ
خَادِمُ ٱلمِصْبَاحِ وَخَادِمُ ٱلقَنْطَرَةِ
عَفَارِيتُ ٱلمَعْجَنِ وَٱلتَّتْخِيتَةِ
إِخْتَفَوا فِي ٱلعَوْسَجَةِ
مَرِحِينَ فِي ٱلقِطَارَاتِ
ٱلَّتِي تَتَنَقَّلُ عَلَى ٱللَّمْعَةِ ٱلمُتَقَطِّعَةِ
أَوْ عَلَى ٱللُّعَاب

كَانُوا هُنَاكَ فِي مَكَانِ الطَّعْنَةِ
يُطَرْطِشُونَ ضِحْكَهُمْ
أَلْبَلُّوطُ ٱلَّذِي أَمْطَرَ
وَالنَّوَى ٱلَّذِي ظَلَّ يَنْفَلِشُ
أَلْأَطْيَافُ ٱلَّتِي تَعَشَّقَتِ التَّبْغَ وَالنُّشُوقَ
وَٱلَّتِي تَعْتَرِضُ ٱلهَوَاءَ
كَمَا تَعْتَرِضُ لَكْنَةُ ٱلحَدِيثَ
تَأْتِي سَابِحَةً تَحْتَ نَفَثَاتِ الدُّخَانِ
وَسَتَطْرَحُ هُنَاكَ أَزْيَاءَهَا ٱلغَرِيبَةَ
وَطُيُورَهَا

- ٩ -

جَاؤوا بِكَثْرَةٍ
ظِلالٌ مُصَبَّرَة
لِهَؤلاءِ ٱلَّذِينَ ٱسْتَرْسَلُوا فِي حَمَاقَتِهِمْ
أَللِّحَى ٱلَّتِي تَسْتَرْسِلُ مِنْ خَرَفِهِمْ
مَتْروكَةٌ هُنَاك
عَلَى أَدَوَاتِ ٱلقَتْلِ وَٱلقَنَاطِرِ ٱلمُدَمَّرَةِ
وَٱلإِعْدَامَاتِ ٱلكَثِيرَةِ
ٱلَّتِي مَسَحَتْ خُطُواتِهِم
لاَ تَزَالُ تَحْمِيهِم مِنَ ٱلعَوْدَةِ

ظِلالٌ تَتْعَبُ مِنَ ٱلخُرُوجِ
عَيْنا دُودَةٍ حَاكِمَةٍ
وَنُعَاسُ الرَّهْبَةِ ٱلَّذِي يُدَبِّرُهُ
سُمٌّ لاَ ظِلالَ لَه

جَاؤوا بِكَثْرَةٍ
وَهَدَّدونَا
بِطِفْلٍ أَحْمَق

فِي ٱلخَارِجِ
كَانَ ٱلبَرْقُ الصَّامِتُ يُشَقِّقُهَا عَلَى ٱلهَضْبَةِ
وَفَوَانِيسُ ٱلمُزَارِعِينَ
رُبَّمَا فِي سُخُونَةِ ٱلحِسَاءِ
تَنْقَشِعُ كُلُّ هَذِهِ الطُّرُقِ
وَٱلهَزَّةُ الصَّغِيرَةُ ٱلَّتِي حَدَثَتْ
- مِنْ بُرْهَةٍ -
لَمْ تَشْعُرْ بِهَا فِي ٱلجَسَدِ
أَوْ ٱلمَوْقِد

كَانَ خَرَفُ ٱلإِحْتِفَالِ
لَا يَزَالُ فِي جَسَدِهَا
ٱلَّذِي تَرَكَتْ فِيهِ الذِّئَابُ شَيْئاً حِينَمَا ٱقْتَرَبَتْ
رُبَّمَا هِيَ أَسْنَانُ الشَّبَحِ
أَوْ خِيطَانُ ٱلمُهَرِّجِ
رُبَّمَا شَتِيمَةُ ٱلجَدِّ
أَوْ فَأْرَةُ ٱلعَمَّةِ
لَا تَزَالُ فِي بَطْنِهَا

رُبَّما الزِّلْزَالُ ٱلَّذِي لَمْ تَشْعُرْ بِهِ
رَدَمَ جَانِباً مِنَ ٱلغُرْفَةِ
فِي دَاخِلِهَا

وَلَمْ يَكُنِ ٱلجَبَلُ هُوَ ٱلَّذِي يَلِدُ
قَدْ يَكُونُ السَّحَرَةُ صَنَعُوا ذَلِكَ
أَوْ بَاعَةُ السُّمُوم

حِينَمَا جَاءَهَا ٱلمَخَاضُ فِي أَكْثَرَ مِنْ جِهَةٍ
لَا حَصْرَ لِلأَحْجَارِ ٱلَّتِي تَلَطَّخَتْ

صور ـ ١٩٨٤

خنصر العائلة

- ١ -

لَمْ يَكُنِ ٱلفَجْرُ
كَانَتِ السَّمَاءُ تَتَجَوَّرُ أَكْثَرَ
وَالنُّجُومُ تَفُورُ فِيهَا كَالنَّحْلِ ٱلهَائِجِ
أَلْغَاسِلاتُ تَهْبِطْنَ ٱلمُنْحَدَرَ
ثَقِيلاتٍ بِمُؤَخَّرَاتِهِنَّ
وَرَاحَاتِهِنَّ مُفَقَّعَةً بِالنُّجُوم

سَحَبْنَا مِنَ ٱلغُيُومِ ٱلرَّثَّةِ طَيَّارَاتِنَا
لَمْ تَكُنْ وَسِخَةً هَكَذا
عِنْدَمَا حَلَّقَتْ

كَانَتْ هُنَاكَ حُجُرَاتٌ كَثِيرَةٌ
حِينَمَا دَخَلَ ٱلجَدُّ بِكُوزِهِ وَمَبْصَقَتِه

كَانَ هُنَاكَ النُّورُ ٱلَّذِي يَسْتَمِرُّ طِيلَةَ نَوْمِنَا
صَغِيراً دَاخِلَ السَّحَابِ
حِينَمَا دَخَلَ ٱلجَدُّ تَحْتَ ٱلكَيْلَةِ
وَٱخْتَفَى

مَعَ ذَلِكَ بَقِيَتِ ٱلحُجُرَاتُ مَفْتُوحَةً
كَٱلعُلَبِ ٱلَّتِي نَتْرُكُهَا لِدُخُولِ الزَّيْزَان

كَانَتِ السَّمَاءُ تَغْمُرُنِي إِلَى نِصْفِي
حِيْنَ وَقَفْتُ حَقّاً عَلَى كَتِفِ ٱلأَرْض

كَانَتْ هُنَاكَ ٱلعَصَافِيرُ
ٱلَّتِي تَتَصَايَحُ كَٱلْفِبَاءَ مَجْنُونَةٍ
تَارِكَةً يَاءَاتٍ كَثِيرَةً عَلَى الطَّرَابِين

أَلْمُكَارِيُّ
وَخَلْفَهُ ٱلَّذِي يَحْمِلُ ٱلكَامِيرَا
وَمُدَاوِي ٱلأَسْنَانِ
أَلثَّلاثَةُ وَصَلُوا إِلَى الطَّلْعَةِ
وَتَوَقَّفُوا عَلَى السِّنِّ الصَّخْرِيِّ
حَيْثُ لَمْ يَعُدْ يُرَى سِوَى عُلُوِّهِمْ

خَرَجْنَا مِنَ ٱلجَوْفِ ٱلأَبْيَضِ لِلْمَسْجِدِ
هُنَاكَ صَرَخْنَا مِنْ عُيُونِنَا

كَانَ ٱلمَغَارِبَةُ وَحَيَوَانَاتُهُمْ
يُلَوِّحُونَ بِلَوْنِ ٱلحَصَى
وَالسَّمَاءُ تَسْمَرُّ كُلَّمَا ٱقْتَرَبُوا
هُنَاكَ فَتَحْنَا أَفْوَاهَنَا عَلَى وُسْعِهَا
وَتَرَكْنَا الصَّدَى يَخْرُجُ مِنْهَا

- ٢ -

كَانَ هُنَاكَ رِجَالٌ بِوُجُوهِ أَحْصِنَةٍ
يَصِلُونَ قَبْلَ ٱلبَرِيْد
وَيَجْلِسُونَ فِي ٱلمَسَاءِ ٱلأَبْرَش

إِنَّهُمْ يَلْتَفِتُونَ بِبُطءٍ
وَعَلَى طُولِ خُدُودِهِم جَرَّةُ فَأْس

عَظْمٌ كَثِيرٌ فِي وُجُوهِهِم
صَحْوٌ كَثِيرٌ فِي عُيُونِهِم وَجَفَاف
إِنَّهُمْ يَلْتَفِتُونَ بِبُطءٍ
بِدُونِ أَنْ تَتَغَيَّرَ صَبَّةُ رُؤُوسِهِم

فِي تِلْكَ ٱلأَرْضِ ٱلمُلَوَّحَةِ بِٱللَّوْنِ الصَّوَانِيِّ
حَيْثُ يُقَدِّمُونَ ٱلمَاءَ مَخْلُوطاً بِالدُّخَانِ وَٱلحِنْطَةِ
ذَلِكَ النَّهَارُ الرَّائِبُ ٱلَّذِي سَاحَ فَجْأَةً
وَٱلَّذِي طُبِخَ مِنْ لَبَنٍ أَسْمَرَ وَحَلِيبِ دَوَاجِنَ
لَقَدْ شُوِيَتْ ثَانِيَةً تِلْكَ ٱلجُدْرَانُ ٱلمُطَرَّقَةُ جَيِّداً
وَهَا هُوَ السَّهْلُ وَاضِحٌ بِسُمْرَةِ ٱلقَشِّ وَٱللِّبْنِ
سُمْرَةِ ٱلحَصَى
بِذَلِكَ ٱلخَبَرِ ٱلمَطْفِيِّ وَالسَّنَةِ ٱلمَطْفِيَّةِ
لِسُقُوطِ أَكْبَرِ ٱلقِلاَعِ
سَوَاداً فِي مُخَيِّلَتِنَا

لَنْ نَلْحَقَ أَبداً طَلِيعَ ٱلعَصَافِيرِ
ٱلَّذِي سَحَبَنَا خَلْفَ زِيزَانِنَا وَطَيَّارَاتِنَا
إِلَى ذَلِكَ ٱلمَسَاءِ ٱلَّذِي كَشَفَنَا
يَوْمَ كَانَتْ لَنَا وُجُوهُ التِّلالِ
ٱلَّتِي أَحْسَنُوا تَرْبِيَتَهَا

لَنْ نَقُولَ ذَلِكَ عَنْ ٱلحِجَارَةِ
ٱلعَاصِيَةِ فِي طُفُولَتِنَا
وَٱلَّتِي وَحْدَهَا تَسْتَمْهِلُ ٱلبَقَاءَ
وَنَحْنُ نَسْتَصْلِحُ أَعْوَامَنَا

عَنِ ٱلَّذِينَ يُحَرِّكُونَ الضَّبَابَ وَالنَّوْمَ ٱلكَامِلَ
حَوْلَ مَسَاكِنِنَا
وَٱلَّذِينَ وَهُمْ يَفْقِدُونَ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ
ٱتِّجَاهَاتِ ٱلأَمْطَارِ وَٱلجَزْرِ
يَرْفُضُونَ أَنْ يُبَارِحُوا

لِيُقَدَّمَ ٱلمَاءُ ٱلمُدَخَّنُ ثَانِيَةً
تَحْتَ ٱلعَرَائِشِ
لِيُقَدَّمَ لِلَّذِينَ يُدَخِّنُونَ بُيُوتَهُمْ
وَبُيُوتَ جِيرَانِهِمْ
تَارِكِينَ لِلْحَشَرَاتِ نَافِذَةً وَحِيدَة

لِلَّذِينَ يَصْلُحُ ٱلمِلْحُ وَحْدَهُ لِتَغْذِيَتِهِمْ
وَهُمْ يَلْتَفُّونَ بِٱلحُصُر

لِيُقَدَّمَ لِلَّذِينَ يَنْقُلُونَ ٱلقِطَعَ ٱلأَكْثَرَ صَخَباً
مِنْ مَدَافِنِ ٱلعَائِلَةِ
مَشْغُولِينَ طِيلَةَ ٱلوَقْتِ
بِتَهْوِيَةِ طُفُولَتِهِم

لِيُقَدَّمَ ٱلمَاءُ الشَّافِي
أَلْمَاءُ ٱلَّذِي صُلِّيَ عَلَيْهِ
لأَكْبَرِ ٱلأَبْنَاءِ، أَلْهَزِيلِ مِثْلِ دُودَةٍ
وَمِنْ أَجْلِهِ يُعَدُّ ٱلبَابُونَجُ كُلَّ مَسَاء
وَٱلَّذِي شَرِبَ لِلآنَ
كَثِيراً مِنْ مَغْلِيِّ ٱلأُرُزَ

لِيُقَدَّمَ إليهِ لِيُرْخِيَ عَيْنَيْهِ وخُصْلاتِهِ
فَلا تَنْحَتُ بَشَرَتُه

إِنَّهُ يَرْقُدُ مَعْ عَمَّاتِهِ عَلَى بُسْطٍ رَقِيقَةٍ
وَيَتَنَشَّقُ مِنْ آبَاطِهِنَّ رَائِحَةَ ٱلفَطِيرِ
وَحِينَ تَحَرَّى مَنَابِتَ شَعْرِهِنَّ أَحَسَّ بِدَبِيبِهَا عَلَى ٱلأَنَامِلِ
وَشَعَرَ أَنَّ دُوَيْبَاتِ صَوَانِيهِ مَرَّتْ مِنْ هُنَاكَ
مُخَلِّفَةً بَيْضَهَا ولُعَابَهَا وَيَبَاسَ ظُهُورِهَا

كَانَ عَلَى ظَهْرِ ٱلبَغْلِ يَحْلُمُ فِي النَّزْلَةِ
بِخِيطَانِ الشَّعْرِ ٱلقَاسِيَةِ
تُشَتِّلُ فِي أَمَاكِنَ غَامِضَةٍ
رُبَّمَا كَانَتْ
عَلَى جَسَدِه

عِيْدَانُ السَّنةِ
عِيْدَانُ الْمَطَرِ عَلَى كُلِّ هَذَا الصَّقْع

تَبْدَأُ السَّنَةُ عَلَى حُصْرِ ٱلخَرِيف

إِنَّها فَرْقَعَةُ ٱلبَرْقِ: مِشْطُ ٱلأَسْنَانِ الطَّوِيلُ
حَيْثُ يَبْدَأُ ٱلمُسْتَنْقَعُ وَالرَّابِيَةُ صِيَامَهُمَا

مَعَ ذَلِكَ كَانَتِ ٱلغُيُومُ الرَّثَّةُ لاَ تَزَالُ
فَوْقَ ٱلبُسْطِ ٱلبَرْشَاءِ لِلْمِيَاهِ ٱلمُزَيَّتَة

تَبْدَأُ السَّنَةُ، يَتَدَاعَى السَّقْفُ ٱلأَوَّلُ لِلسَّمَاءِ، لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ ذَلِكَ ٱلعُلُوُّ، إِنَّهَا تَتَقَوَّسُ عَلَى عِيدَانِهَا، لَمْ نَعُدْ نَتَعَثَّرُ وَنَحْنُ نَطْلُبُ النَّوافِذَ فِي تِلْكَ التَّتْخِيتَةِ ٱلبَارِدَةِ، بَيْنَمَا، ٱلحُصْرُ ٱلمُعَلَّقَةُ تَسُحُّ وَالسُّقُوفُ ٱلَّتِي تَدَاعَتْ مِنَ ٱلجَانِبَيْنِ تَنُزُّ عَلَى الدَّرَجَاتِ ٱلعَشْر

أَلأَمْطَارُ مَشْتُولَـةٌ عَلَى وُسْعِ ٱلبَحْـرِ، وَٱلمِشْطُ السَّنَـوِيُّ يَنْـزِلُ عَلَى ٱلمَـاءِ ٱلأَشْعَثِ، لَكِنَّ شَمْسـاً صَغِيرَةً تَهْرُبُ مِن بَيْنِ ٱلأَسْنَـانِ. بَيْنَمَا وَنَحْنُ نَصْعَـدُ إِلَى خَرْقِ ٱلغَيْمِ نَلْمَحُ جُمُوعاً تَبْتَعِدُ بِحَيَوَانَـاتِهَا إِلَى جِدَارِ النُّخَالَةِ ٱلكَبِير

لَقَـدْ بَدَأَ ٱلعَـامُ، وَهَا نَحْنُ نَـرْتَفِعُ فِي ٱلمَـطَرِ مُتَدَلِّينَ مِنْ خِيطَانِـهِ. مُتَأَمِّلِينَ ذَلِـكَ ٱلخَيْطَ الشَّاسِـعَ وَهُوَ يُفْلِتُ مِنْ رَتْقِ السَّمَاءِ وَٱلأَرْض

نَرْفَعُ طَرَفاً مِنْ ذَلِكَ ٱلمَسَاءِ
ٱلَّذِي رَقَدْنَا تَحْتَهُ
وَكَبِرْنَا مَعَ ٱلعُشْبِ
وَٱلحِجَارَةِ وَنَدَى ٱللَّيْل

رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ دُخَانَهُمْ
هَؤُلاءِ ٱلَّذِينَ وَهُمْ يَسْهَرُونَ عَلَى سُقُوفِنَا
مَزَجُوا لُهَاثَ ٱلوَادِي
وَوَجَّهُوا ٱلقَوَادِمَ ٱلخَفِيفَةَ لِلنَّوْم

كَانُوا يَرْفُعونَنَا عَنِ ٱلمَصَاطِبِ
حَيْثُ كُنَّا نَحْلُمُ
بِالنَّوْمِ ٱلجَمِيلِ فِي ٱلخِلْجَانِ
وَالنُّعَاسُ يَتَدَفَّقُ إِلَيْنَا
مِنْ لِحَى أَجْدَادِنَا

لَقَدْ أَمْضَيْنَا ذَلِكَ ٱلعَصْرَ
وَنَحْنُ نَرُدُّ خَلْفَنَا أَبْوَابَ النَّوْمِ
وَاحِداً وَاحِداً
كَمَا نُقَلِّبُ كِتَاباً

كَانَتِ ٱلحُقُولُ مَسْقُوفَةً بِالنَّوْمِ
أَوْ مَفْرُوشَةً بِالظِّلِّ ٱلكَامِلِ
وَحِينَ نُنْهِي مِشْطاً آخَرَ مِنَ ٱلقِمَمِ وَٱلمُنْخَفَضَاتِ
كُنَّا نَرْجِعُ إِلَى نَوَّاصَاتِنَا
وَنُتَابِعُ ٱلمَشْيَ تَحْتَ ٱلبَحْرِ

كَانَتْ أَيْدِينَا جَمِيلَةً كَأَيْدِي آبائِنَا
لَكِنَّنَا بِشِفَاهِ أُمَّهَاتِنَا
لَمْ نَكُنْ نُحْسِنُ ٱلغِنَاءَ ٱلقَوِيَّ
وَبِأَعْيُنِهِنَّ ٱبْتَسَمْنَا

تَنْتَفِشُ صُخُورٌ وَرْدِيَّةٌ
وَنَحْنُ مِنْ عَلَى سَطْحِنَا
نَبْتَسِمُ فَوْقَ ٱلأَرْدَوَازِ
وَٱلفَجْرُ يَنْدَلِعُ عَلَى ٱلغِلافِ
أَلنَّوْمُ يَسِيلُ مِنَ ٱلكُتُبِ وَالصِّيصَانِ
وَٱلعَمَّاتِ ٱلبَدِينَاتِ
وَيَكْفِي أَنْ نَفْتَحَ صَفْحَةً
لِتَبْدَأَ ٱلأَحْلَامِ

وَذَلِكَ ٱلإِبْنُ ٱلَّذِي يُكَلِّمُ زِيزَانَهُ فِي ٱلمَسَاءِ عَنْ بَنَاتِ ٱلعَمِّ ٱللَّوَاتِي ٱخْتَفَيْنَ فِي لُعَبِ الصَّيْفِ. لَقَدْ تَرَبَّتْ لِي، تَرَبَّتْ لِي فِي عُلَبِ ٱلوَرْدِ تِلْكَ ٱلإِبْنَةُ، وَمِنْ أَجْلِي خَدَمَهَا أَشِقَّاؤُهَا وَخَصَّلَتْهَا خَالاَتُهَا، وهَا يتَدَسَّمُ سَاقَاهَا وَنَهْدُهَا وَكَانَ أَحْرَى بِي لَوْ كُنْتُ أَكْبَرَ أَنْ أَنْتَظِرَهَا عَلَى ٱلبَاب

كَانَ عَلَى رُكْبَتِي دَائِماً ذَلِكَ الرَّأْسُ ٱلَّذِي أَعْرِفُ أَنَّهُ لِأُخْتِي، وَإِنْ نَاحَتْ خُصَلُهُ طَوِيلاً قَبْلَ أَنْ تُؤْلِمَنِي. ذَلِكَ الطَّرِيقُ ٱللَّبَنِيُّ يُؤلِمُنِي قَلِيلاً. حِينَ تَضِيعُ نَهَايَتُهُ عَلَى الصَّخْرَةِ وَكَمْ هِيَ ٱلحَشَرَاتُ ٱلأَجْمَلُ مِنَ ٱلبَوَاقِيتِ وَكَانَ لَمَعَانُهَا ٱلمَوْصُولُ يُؤْذِينِي، لَنْ تَصِلِي أَسْبَقَ مِنِّي، لَنْ تَصِلِي فَرِدْفُكِ حَجَرٌ ثَقِيلٌ وَوَجْهُكِ ٱلمَمْرُوضُ وَهُوَ يُبَدِّلُ جِلْدَهُ يَشُدُّكِ إِلَى الدَّاخِل. لَكِنَّ حَفِيفَ أَقْمِشَةِ ٱلقَرِيبَاتِ وَٱلأَلْوَانِ ٱلَّتِي تَفَرَّجَتْ بَيْنَ سِيقَانِهِنَّ طِيلَةَ ٱلمَسَاءِ تَلْمَعُ فِي صُدْغِيَّ كَمَا كُنْتُ أَتَوَرَّدُ أَيضاً حِينَ أَتَحَسَّسُ زِيزَانِيَ وَأُطْعِمُهَا أَوْ حِينَ ٱخْتَفَيْنَا فِي حَصِيرَةٍ، وَأَطْعَمْتُكِ مِلْحاً وَكَانَ مِشْطُكِ أَبْرَدُ مِنْ فَمِك

لَنْ أَتَذَكَّرَ أَيْضاً قُبَلَ ٱلأَشِقَّاءِ، وَلاَ ٱللَّوَاتِي كُنَّ
يسْتَيْقِظْنَ مَنْبُوشَاتٍ مِنْ رَائِحَةِ ٱلغَارِ عَلَى السَّقِيفَةِ.
لاَ تُدَغْدِغِينِي بِهَمْسِكِ حِينَ أَقِفُ وَحْدِي أَسْعَى
لأُطَيِّرَ رَاحَتَيَّ أَوْ أُقَلِّبُهُمَا كَكَلْبَتَيْنِ، لاَ تُدَغْدِغِينِي

كُلَّمَا لَمَسْتُ الزَّغَبَ آلبَاكِرَ
فَوْقَ فَمِكِ
تُؤْلِمُنِي أَسْنَانِي
كَبِيرَةٌ وَحَمْقَاءُ وَأَسْنَانُكِ كَبِيرَةٌ
وَجِلْدُكِ آلَّذِي تُبَدِّلِينَهُ هَذَا الصَّيْفَ
وَاسِعٌ كَآلأَكْمَامِ وَمُقَشَّرٌ
عَلَى بَطْنِكِ وَإِبْطَيْكِ
لَكِنَّكِ تُزَنِّرِينَنِي بِيَدَيْكِ
وَتَعْصُرِينَ رُكْبَتَيَّ وَعُضْوِي

كَانَ دَمِي أَيْضاً يُؤْلِمُنِي
طِيلَةَ النَّهَارِ آلَّذِي رَقَدْنَاهُ تَحْتَ السَّقِيفَةِ
كَذَلِكَ آحْتَرَقَ بَوْلِي
وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُحَرِّرَ آلحَلِيبَ
وَآلحُمَّى آلَّتِي تَشُكُّ وَجْهِي

هَا أَنْتِ تَنَامِينَ
وَأَنَا أَنْزَعُ دَبَابِيسَكِ
ٱلَّتِي ٱمْتَثَلَتْ لَكِ عَصْرَ ٱلْيَوْمِ
حِينَ زَرَعْتِهَا فِي خِصْيَتَيَّ

هَذَا ٱللُّبُّ النَّاصِعُ لِلْإِبْنَةِ
جَعَلَ وَجْهَهَا خَفِيفاً فِي النَّوْمِ
وَلَمْ يَتْرُكْ عَلَيْنَا قَطْرَةً مِنَ الدُّخَانِ
حِينَ نَظَرَتْ أُمُّهَا إِلَيْنَا

وَإِذْ يَهْبِطُ ذَلِكَ الضَّيْفُ مِنَ السُّفُوحِ ٱلَّتِي ٱنْقَطَعَتْ فِيها سُلاَلَتُنَا. قَبْلَهُ مَرَّ أَقَارِبُ مَغْمُورُونَ رَهَنُوا عِنْدَنَا سَنَادِينَهُمْ. كُنَّا نَرْحَلُ كُلَّ صَيْفٍ إِلَى أَرْضِ أُمِّي ٱلكَثِيرَةِ ٱلمَيَاهِ حَيثُ يُزَرِّرُ ٱلمَشَايِخُ غَنَابِزَهُم فِي ٱلخُضْرَةِ، وَيَتَبَوَّلُونَ مُقَرْفِصِينَ فِي الضَّبابِ تَمَاماً تَحْتَ بُيُوتِهِم

كُنَّا نُولَدُ مِنَ الضَّبَابِ كُلَّ عَصْرٍ بَعْدَ أَنْ نَتَوَغَّلَ فِي ٱلأَوْدِيَةِ ٱلمَبْحُوحَةِ بِهِ، وَبَعْدَ أَنْ نَقْضِي الظَّهِيرَةَ تَحْتَ مَرَاوِحِهِ، وَفِي مُهُودِهِ الرِّيشِيَّةِ، نَبْقَى هُنَاكَ صَدَى ٱلبُيُوتِ ٱلَّتِي أَفْرَغَتْنَا مُبَقِّعِينَ ٱلحَلِيبَ بِقَهْوَةِ وُجُوهِنَا. وَمَا مِنْ أَحَدٍ كَانَ أَكْثَرَ بَهْجَةً بِهَذَا ٱلهَوَاءِ ٱلمَنْدُوفِ، وَمَا مِنْ طُرُقٍ كَانَتْ أَكْثَرَ بَيَاضاً تَحْتَهُ، وَمَا مِنْ جَمْعٍ أَطَلَّ أَكْثَرَ مِنَّا عَلَى تِلْكَ الضَّجَّةِ ٱلحَرِيرِيَّةِ ٱلعَالِيَةِ، حَيْثُ لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ أَنَّنَا لَنْ نُقِيمَ بَعْدُ عِيداً أَكْبَرَ لِلْهَاوِيَةِ، وَأَنَّنَا فِيمَا نَتَأَمَّلُ كَيْفَ يَصِيرُ ٱلعَالَمُ شُرْفَةً، أَخَذْنَا نَسْقُطُ مِنْ كُمِّ الضَّبَابِ رَاكِعِينَ جَنْبَ أَسِرَّتِنَا

- ٩ -

كَانَ الضَّبَابُ أَيْضاً فِي الزَّوَارِيبِ، يَتَرَبَّى مَعَ هَذِهِ ٱلخَيَالَاتِ النَّحِيلَةِ عَلَى ٱلجُدْرَانِ، وَمَعَ دُخَانِ ٱلحَسَاءِ وَالزُّجَاجَةِ. إِنَّهُ قِنَاعُ السِّكِّيرِ وَٱلخَادِمِ، وَخُطْوَتُهُمَا ٱلعَرْجَاءُ. وَسَيَكُونُ هُنَاكَ مَزِيدٌ مِنْهُ فَوْقَ ٱلقِطَطِ ٱلمُتَعَارِكَةِ وَٱلقِطَعِ ٱلَّتِي أَفْلَتَتْ مِنْ يَدِ السَّيِّدَةِ، أَمَّا رَبَّاتُ ٱلبُيُوتِ فَسَيَجِدْنَ صُعُوبَةً فِي رَفْعِهِ عَنِ ٱلحَصِيرَةِ، وَرُبَّمَا فَكَّرَ طِفْلٌ فِي أَنْ يُشْعِلَ طَرَفَه

وَكَانَ أَهْلُ أَبِي عَلَى عِيدَانِهِم فَوْقَ النُّجُودِ ٱلعَالِيَةِ. كَانَتِ ٱلأَسْنَانُ ٱلكَبِيرَةُ لِلسَّنَةِ مَنْحُوتَةً عَلَى دَايِرِ ٱلقُرَى. وَلاَ شَيْءَ سِوَى الأَسْنَانِ وَالسَّنَادِينِ ٱلكَبِيرَةِ يَطْلَعُ مِنْ دُخَانِ ٱلمَزَارِعِ وَٱلأَرْضِ ٱلمَفْلُوحَةِ بِالنُّبَاح

كُنَّا عَلَى صِوَانِ ٱلحَجَرِ. حَيْثُ وَجَدْنَا جَمِيعاً ٱلحَرِيرَ ٱلأَنْسَبَ لِمُحَاوَرَاتِنَا، وَحَيْثُ لاَ تَزَالُ أَبْكَرُ أَدِّعَاءَاتِنَا مَعَ أَقْزَامِ ٱلعُمْرِ ٱلأُخْرَى شَابَّةً. كَمَا لاَ تَزَالُ زَوْجَاتُ طَوَالِعِنَا ٱلمَهْجُورَاتُ فَتَيَاتٍ فِي مَرَاقِدِهِنّ

لَنْ نَنْتَظِرَ أَكْثَرَ حَدَّادِينَ يَخْطُونَ وَسْطَ بَوَّابَاتِهِم ٱلعَرِيضَةِ وَأَقْفَالِهِم، وَأَزْوَاجَ ثِيرَانٍ تَرْعَى مِنْ فَاكِهَةِ السُّوقِ وَمُلَثَّمِينَ يُصْعِدُونَ الدُّخَانَ وَٱلبَرْدَ مِنْ كُوفِيَّاتِهِم

إِنَّنَا نَخْطُو عَلَى صِوَانِ ٱلحَجَرِ وَهُوَ يَتَوَرَّدُ فِي ٱلمَسَاءِ وَالصَّخْرَةُ ٱلمَوْلُودَةُ تَرْفَعُ سِنَّهَا مِنَ التُّرَابِ كَمَا تَتَحَرَّكُ فِي بَاطِنِ ٱلأَرْضِ ٱلجِبَالُ ٱلكَبِيرَةُ لِلسَّنَة

نَرَى أَيْضاً ٱلأَحْجَارَ ٱلمُسِنَّةَ تَنْتَفِشُ وَكُنَّا نَأْمَلُ أَنْ يَتَأَخَّرَ خَرَفُهَا. وَنَرَى أَيْضاً أَيْنَ تَرَكَتِ الصَّاعِقَةُ أَظَافِرَهَا عَلَى جَانِبِ ٱلجَبَلِ، وَتِلْكَ ٱلقَرْيَةَ ٱلَّتِي بَعْدَ أَنْ يَنْكَشِفَ دُخَانُهَا تَظْهَرُ ٱلآنَ مُتَسَنِّمَةً كَٱلفَرَس

كَانَ أَهْلُ أَبِي إِسْكَافِيِّينَ أَحراراً. وَٱنْتَشَرُوا عَلَى طَرْقَةِ سَنَادِينِهِم فِي هَذِهِ الطُّرُقِ ٱللُّبْنِيَّةِ ٱلأَشْبَهِ بِسَهَرِ ٱلعُمْيَانِ. صَعِدُوا إِلَى أَعَالِي حُورَانَ وَنَزَلُوا إِلَى سَوَاحِلِ ٱلمُدُنِ، وَٱلجِبَالُ تَخُورُ مِنْ حَوْلِهِم وَالشُّقُوقُ مَحْرُوثَةٌ بِٱلخُوَارِ. إِلَى أَيْنَ يَحْمِلُونَ فِي دَمِهِم وَإِلَى كُلِّ مَكَانٍ يَرَقَانَ وِلَادَتِهِم؟

وَهَؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُرْسِلُونَنَا وَرَاءَهُمْ بِٱلإِبْرِيقِ وَٱلمَسْرَجَةِ لِنَصُبَّ عَلَى أَيْدِيهِمْ. وَكَانُوا يَعُودُونَ مِنَ ٱلخَلَاءِ مُقَطِّبِيْنَ رَغْمَ أَنَّ ٱلمَاءَ ٱلَّذِي بُذِلَ لَيْسَ قَلِيلاً

كَانَ فِي وُجُوهِهِمْ حَجَرٌ كَثِيرٌ وَطَنِين

كَانَتْ وُجُوهاً رَعْدِيَّةً بِدُونِ أَنْ يَتَقَطَّعَ صَدَاهَا، وُجُوهاً كَامِلَةً لَا تَرْمِشُ، وَلَا تُغَيِّرُ مَكَانَهَا فِي سَقْفِ ٱلغُرْفَةِ حَيْثُ كُنَّا نَحْلُمُ بِأَنَّ السَّقْفَ نَفْسَهُ يَضْحَكُ بِأَسْنَانِهَا

كُنَّا نَقُولُ إِنَّهُمْ جَاءوا مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ وَكَانُوا بِحَرَكَةِ أَكْمَامِهِم ٱلوَاسِعَةِ يُنَقِّلُونَ نُوْرَ ٱلفَانُوسِ فِي ٱلغُرْفَةِ إِلَى ٱللَّحْظَةِ ٱلَّتِي نُدِيرُ فِيهَا أَعْيُنَنَا وَنَنَام، شَاعِرِينَ بِأَنَّ ٱلغُرْفَةَ كُلَّهَا دَارَتْ نَحْوَنَا

وَحِيْنَ يَتَحَدَّثُونَ بِعِبَارَاتٍ مُحَبَّرَةٍ، كُنَّا نَشُكُّ أَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ عَلَى ٱلقِمَّةِ، أَنَّ الضَّجَّةَ تُسْمَعُ مِنَ السَّمَاءِ نَفْسِهَا كَأَنَّ ٱلمَآذِنَ تَتَخَاطَبُ فَوْقَنَا

ذَلِكَ يَحْدُثُ فِي ٱلغُرْفَةِ ٱلكَبِيرَةِ (وَٱلوَحِيدَةِ) ٱلَّتِي أُجْبِرْنَا عَلَى ٱلإِغْتِسَالِ فِيهَا. وَهَا هُمُ الرِّجَالُ ٱلَّذِينَ تَغَرْغَرُوا سَبْعَ مَرَّاتٍ أَمَامَ الدَّارِ وَفَحَصُوا أَحْنَاكَهُم بِالمَاءِ، يَجْلِسُونَ مُقَطِّبِينَ لِأَنَّ النَّجَاسَةَ ٱلمَاكِرَةَ ٱنْطَرَدَتْ إِلَى الدَّاخِلِ. إِنَّهُمْ أَشْبَهُ بِهَؤلاءِ الأُمَّهَاتِ ٱللَّوَاتِي يَتَحَرَّيْنَ أَثَرَ الزَّنَخِ فِي أَخْلاطِ الرَّائِحَةِ وَفِي كُلِّ طَعْم. وَتَبْقَى شَهِيَّتُهُنَّ مَغْلُوبَةً أَوْقَاتَ الطَّعَامِ وَالنَّوْمِ وَاقْتِرَابِ الذَّكَر

مَنْ يُصَدِّقُ ذَلِكَ النَّهَارَ ٱلَّذِي ٱنْقَضَى مُرَصَّعاً بِٱلحَشَرَاتِ وَٱلَّذِي ظَهَرَ فِي قِمَّتِهِ مُحَاطاً بِآلِهَةٍ مَدِيْدِيْنَ كَانَ ٱلمَغْرِبِيُّ أَجْمَلَهُمْ

لَكِنَّنَا بَعْدَ قَلِيلٍ سَنُقْرِنُ زَوْجَيْنِ مِنَ الزِّيزَانِ، وَاحِداً ذَهَبِيّاً إِلَى آخَرَ فِضِّيٍّ وَنَتْرُكُهُمَا يَسِيرَانِ وَسْطَ ٱلمِلْحِ إِلَى ٱلمَدْخَلِ، وَلَنْ نَتْرُكَ النَّمْلَ يَتَخَبَّطُ أَكْثَرَ فِي الدَّقِيقِ. سَنَأْكُلُ وُرُوداً كَبِيرَةً وَجُذُوراً تَبْعَثُ عَلَى النُّعَاسِ. أَلنَّوْمُ ٱلَّذِي كُنَّا نَتَنَشَّقُهُ وَهُمْ يَكْسِرُونَ أَعْوَادَ ٱلعَيْزَقَانِ والزُّوفَا. وَكَمْ كَرِهْنَا رَائِحَةَ ٱلحَسَاءِ أَيْضاً؛ وَتِلْكَ ٱلأَيْدِي الرَّاقِيَةَ ٱلَّتِي تُتَمْتِمُ فَوْقَ جِبَاهِنَا فِي ٱللَّيَالِي ٱلَّتِي تَنْقَضِي تَحْتَ رَائِحَةِ ٱلحَسَاءِ وَمَاءِ ٱلأُرُزّ

سُرْعَانَ مَا كُنَّا نَتَخَلَّصُ مِنْ أَلَمِ لَسْعَةِ النَّحْلِ، وَهَذَا ٱلعَقْرَبُ ٱلَّذِي فَاجَأَنِي تَحْتَ ٱلحَجَرِ فِي حِيْنِ كُنَّا نَسْحَنُ ٱلأُمَّ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَنَبْحَثُ عَنْ ٱلأَعْشَابِ السَّامَةِ لِنُخِيفَهَا

أَطْبَاقُ وُرُودٍ كَبِيرَةٌ، كَانَتْ غَالِباً وُجُوهَ عَمَّاتٍ بَهِيَّاتٍ يُرَاسِلْنَنَا مِنْ بَعِيدٍ، وَأَعْمَامٍ خَالِدِينَ هُمُ ٱلأَكْثَرُ شُقْرَةً وَٱلأَكْثَرُ ٱخْضِرَارَ عَيْنَيْنِ نَرَاهُمْ بَيْنَ ٱلآلِهَةِ ٱلَّتِي تُطِلُّ عَلَى ٱلمُنْحَدَرِ وَنَحْدُسُ أَنَّهُمْ يَلِدُونَنَا هُنَاكَ عَلَى ٱلقِمَّة

كُنَّا نَسْلَ هَؤُلاءِ ٱلمُنْقَطِعِينَ خَلْفَ النَّهْرِ. لَمْ نُولَدْ مِنْ هَذِهِ ٱلعَجْفَاءِ ٱلَّتِي نَدْخُلُ فِي ثَوْبِهَا كُلَّمَا نَهَضَتْ عَنِ ٱلغَسِيلِ. لَكِنِّي سَقَطْتُ غَالِباً مِنْ ذَقْنِ أَبِي ٱلمُرَبَّعَةِ. فِي حِيْنِ أَنَّ وَجْهَهُ ٱلأَكْثَرَ نَحْتاً لَمْ يُعْطَ لِأَحْد

عُلَبٌ دَائِماً، عُلَبٌ لِنُقِيمَ فِيهَا، وَلِيُقِيمَ أَصْهَارُنَا وَبَنَاتُنَا. عُلَبٌ لِلْقُبْطَانِ وَالضَّيْفِ وَٱلعَرِيسِ وَلِلْجَنَةِ ٱلَّتِي سَرَقْنَاهَا مِنْ عَلَى ٱلقَبْرِ. وَسَنَجْعَلُ هُنَاكَ حُجُرَاتٍ لِحَشَرَاتِنَا ذَاتِ ٱللَّمَعَانِ. أَمَّا ٱلمِلْحُ ٱلَّذِي فِي جُيُوبِنَا وَٱلكِبْرِيَتَةُ ٱلَّتِي أَخْفَيْنَاهَا فَسَنَصْنَعُ مِنْهَا نَاراً بِحَجْمِ ٱلجَبَلِ وَسَتَنْتَشِرُ مِنْ نَوَافِذِنَا

دَعُونَا نُكْرِمُ أَمْكَرَ آلِهَتِنَا، مُدَاوِي آلأَسْنَانِ آلَّذِي يَعْرِضُ فِي صُرَّتِهِ أَضْرَاساً مَنْزُوعَةً. وَلَرُبَّمَا شَعَرَ أَبِي وَهُوَ يُمَلِّسُ عَلَى مَكَانِ أَضْرَاسِهِ الثَّلاَثَةِ بِأَنَّ آلفَرَاغَ يَتَسَرَّبُ مِنْ هُنَاكَ إِلَى دَمِه

دَعُونَا نَرَى أَيضاً صُوَرَنَا تُولَدُ فِي جَارُورِ آلمَاءِ آلمُظْلِم

وَكَمَا نَرَى أَكْرَمَ آلآلِهَةِ. ذَلِكَ آلمَنْبُوشُ الشَّعْرِ آلَّذِي يُلاحِقُ الشَّمْسَ لِيَضْبِطَهَا

لاَ نَتَحَدَّثُ عَنْ خَوْفِنَا مِنْ رَحِيلِ آلجِبَالِ آلَّتِي يُقِيمُ فِيهَا أَجْدَادُنَا وَآلَّتِي كَانَتْ قِمَّتُهَا تَضَعُ أَكْبَرَ أَشْيَاءِ الدُّنْيَا: بَيْضَةَ آلجَبَلِ وَمَنْ يُحَدِّقُ فِيهَا وَهِيَ تَفْعَلُ ذَلِكَ يَنْقَطِعُ عَقِبُه

لَكِنَّ آلقِمَمَ آلَّتِي تَهْرُبُ عَبْرَ السِّلْسِلَةِ تَرْجِعُ عَبْرَهَا، يَا لَخِدَاعِ آلعَيْنِ، يَا لَقِصَرِ النَّهَار

- ١٣ -

كَانَ لِعَمِّي يَدَا حَائِكٍ وَوَسْطَ ٱلعَـائِلَةِ الصَّغِيرَةِ لِأَيْـدِينَا ٱلأَكْثَـرَ ضَـآلَـةً، بَقِيَتَـا وَحْـدَهُمَـا فِي خِتَـامِ ٱلمُحَاوَرَاتِ ٱلكُبْرَى وَمُبَـارَيَاتِ النَّسِيجِ ، وَفِي تِلْكَ ٱلقَـطِيفَـةِ وَهِيَ تَنْشُـرُ فَـوْقَ أَسْنَـانِ الصَّخْـرِ ٱلَّتِي لَمْ تَكُفَّ عَنِ النُّمُوِّ خَبَرُ غِيَابِه

بَقِيَتَـا هُنَـاكَ حَيْثُ تَحْتَفِـلُ ٱلأَشْيَـاءُ الثَّـانَـوِيَّـةُ بِنُـدْرَتِهَـا وَيُتْمِهَـا. وَحَيْثُ تَحْتَفِـلُ ٱلأَيْـدِي جَمِيعـاً بِعِنَـاقِهَـا الشَّقِيِّ وَحَيْثُ ٱلأَشْيَـاءُ تُـوَاصِـلُ ٱنْتِـظَارَهَـا بِوُجُوهِ ٱلأَشِقَّاء

إِذْ ذَاكَ كَانَ النِّسْيَانُ يُبَدِّلُ أَهْلَهُ، وَيُبَدِّلُ رِيشَـهُ وَحُجُرَاتِهِ ٱلجُورِيَّةِ وَيَقُودُ ٱلأَزْوَاجَ بِأَيْـدٍ حَرِيـرِيَّةٍ إِلَى حَيْثُ يُقَـدِّمُونَ ٱلحَلِيبَ مَخْلُوطـاً بِالـدُّخَانِ وَالـرِّيـحُ تُوَاصِلُ هُبُوبَهَا فِي ٱلكَأْسِ الضَّيِّقَة

لَا نَعْرِفُهُ. لَكِنْ سَمِعْنَا صِيْتَ يَدَيْـهِ ٱلخَفِيفَتَيْنِ فِي بِنَاءِ التَّعَارِيشِ وَٱلخِيَـاطَةِ لِـلأُمَرَاءِ. إِنَّـهُ ٱلأَصْغَرُ وَٱلأَكْثَرُ فِتْنَةً، إِنَّهُ خِنْصَرُ ٱلعَـائِلَةِ، وَكُلَّمَا ذُكِـرَ يَنْخَلِعُ شَيْءٌ عَنْ يَمِينِنَا

سَبَحَ عَلَى يَدَيْهِ إِلَى ٱلبَرِّ ٱلإِفْرِيقِيِّ وَسَافَرَ بِكَتِفَيْهِ وَحْدَهُمَا. وَظَلَّ ٱلأَجْمَلَ شُقْرَةً وَعَيْنَيْنِ خَضْرَاوَيْنِ عَلَى طُوْلِ السَّاحِلِ، وَحِيْنَ ٱضْطَرَبَ دَمُ السُّلَالَةِ وبَقَّعَ عِدَّةَ أَمَاكِنَ ٱسْتَمَرَّ يُسَافِرُ بِقَبْرِهِ وَيَدَيْهِ إِلَى حَيْثُ الشُّجَيْرَات. وَسَنُعَيِّدُ ثَانِيَةً لِخِنْصَرِ ٱلعَائِلَةِ، وَسَيَمْرَضُ ٱلأَصْغَرُ. فِيمَا الدَّمُ يُبَقِّعُ أَقْرَبَ وَأَقْرَبَ مِنْ مَكَانِنَا

- ١٤ -

إِحْمِلُوا لِي هَذَا الصَّبِي
فَأُقَبِّلُهُ وأَنَا وَاقِفٌ

إِحْمِلُوا لِي هَذَا الصَّبِي
فَأُكَبِّرُ فِي أُذُنَيْهِ

أُدْعُوا أَسَنَّ أَصْحَابِي
لِيَتْفُلَ فِي فَمِهِ

وَآدْعُوا أَعْلَمَهُمْ
لِيَمْرُجَهُ بِزَيْتٍ
صُلِّيَ عَلَيْه

وَلْيَلْحَسْ مِنْ دِمَاغِ عُصْفُورٍ
لِيَقْوَى ذَكَرُهُ

دَخِّنُوا ثِيابَهَ
وِشَاحَهُ وَمَرْيَلَتَهُ
لِيَتَنَقَّى نَوْمُهُ

وَآجْعَلُوا فِيهَا أَثَراً
مِنْ شَيْخٍ
طَالَ عُمْرُه

- ١٥ -

هَا أَنَا أُسَائِلُ أَهْلَ ٱلكِبْرِيتَةِ وَأَهْلَ الرُّمَّانَةِ
وَٱلمْدُنَ ٱلَّتِي ٱخْتَفَتْ فِيهِمَا
حِينَمَا عَبَقَ ٱلوَادِي بِعِرْقِ نَعْنَاعٍ ضَخْم
فِي هَذَا ٱللَّيْلِ ٱلَّذِي ٱسْتَقْبَلَ عَرَقَنَا
وَبِطَانَتُهُ تَتَمَزَّقُ بِعِطْرٍ ثَقِيل

أَدْخُلُ إِلَى حُجْرَةِ جَدِّي
أَسْلُكُ طَرِيقَ النَّوَّاصَاتِ وَٱلحَشَرَاتِ الضَّوْئِيَّةِ
أَجِدُ ٱلحَدِيقَةَ مَرَاتِبَ وَحُجُرَاتِ صَوَّان
وَٱلحِجَارَةَ ٱلَّتِي خَرِفَتْ حَوْلَ جَدِّي
وَٱلعُلَّيْقَةَ ٱلَّتِي جُنَّتْ
قَبْلَ أَنْ يَخْتَفِي فِيهَا

تِلْكَ كَيْلَتُهُ وَكُوزُهُ
وَأَوْجَاعُ صَدْرِهِ لاَ تَزَالُ تَلْمَعُ عَلَى ٱلجِدَارِ
أُمَّهَاتٌ صَغِيرَاتٌ وَنَوَّاصَاتٌ أَيْضاً
حِينَ كَانَتِ ٱلحُجُرَاتُ وَٱلإِبْطَانِ يَفُوحَانِ
وَهَذَا ٱلأَصْغَرُ ٱلمُهَدَّدُ دَائِماً
خِنْصَرُ ٱلعَائِلَةِ
يَا لَلْشَّفَقَةِ ٱلوَاهِيَةِ كَالرِّيش حِيْنَ تَرْتَجِفُ فَجْأَةً
أَلجِرَاحُ ٱلَّتِي نَحْمِلُهَا تَحْتَ جُلُودِنَا

جَدِّي يَنَامُ وَرَوْضَةٌ عِنْدَ رَأْسِهِ
وَقَدَمَاهُ تَقْطُرَانِ مِنْ مَاءِ ٱلجُنَيْنَةِ
وَتِلْكَ ٱلعَائِلَةُ مِنَ ٱلأَكْتَافِ وَٱلخِرَقِ
لاَ تَزَالُ تُسَافِرُ
عَكْسَ النَّهَار

وَلَمْ يَكُنْ مَسَاءٌ أَكْثَرَ وَلاَ أَصَحَّ دُخَاناً مِنْ ذَلِكَ ٱلَّذِي ضَاعَ خَبَرُهُ لِفَرْطِ مَا دَارَ بَيْنَ مَغْمُورِيْنَ تَبَلَّغُوهُ عَلَى ٱلجُذُوعِ وَٱلأَكْتَافِ مِنْ سَقِيفَةٍ إِلَى سَقِيفَة. وَلَرُبَّمَا أَفْضَتْ بِهِ مَرَاوِحُ مَنْ يُدَارُونَ نُعَاسَهُمْ بَعْدَ حَصَادِ يَوْمٍ جَمِيلٍ، أَوْ أُرِيقَ مِنْهُ فِي صَمَمِهِمْ وَهُمْ يَتَسَلَّقُونَ إِلَى نَجْدٍ أَعْلَى. وَلَرُبَّمَا رَشَحَ بَعْضُهُ فِي ٱلفِخَاخِ وَهُمْ يُزَوِّجُونَ حَيَوَانَاتِهِم وَلَنْ يَتِمَّ ذِكْرُهُ عَلَى ٱلأَغْلَبِ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يَعْيَا بِهِ أَهْلُ ٱلمَحْتِدِ وَهُمْ يُلَقِّنُونَهُ لِكَنَّاتِهِمْ بَعْدَ أَنْ وَجَدُوهُ عَلَى حُصُرِهِنَّ وَسَارَ بِهِ الضَّبَابُ يَوْمَيْنِ كَامِلَيْنِ إِلَى أَنْ وُلِد

وَلَمْ يَكُنْ أَكْثَرَ مِنْهُ تَمَاماً حِيْنَ حَلَّ. وَحِينَ نَقَلَهُ صِبْيَةٌ بِلُعَابِهِم وَحَشَرَاتِهِم وَسَاحُوا بِهِ فِي خَانَاتٍ أُسْطُورِيَّةٍ. وَحِينَ جَاءَ مَطَرٌ كَبِيرٌ فَشَتَلَهُ فِي كُلِّ النَّاحِيَةِ. وَلَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يَلْحَقُ هَذَا ٱلخَيْطَ ٱلحَرِيرِيَّ إِلَى مَسْرَبِهِ، لَكِنْ نَذْكُرُ رِيحاً جَمِيلَةَ ٱلخِيطَانِ كَانَتْ تَخْرُجُ مِنَ ٱلكُوز

ذَلِكَ خَبَرٌ فِيهِ فَضْلَةٌ مِمَّنْ عَبَرُوا. سُودٌ فِيهِ شَحَّاذُون. وَكَانَ فِيهِ ذِكْرُ الرَّئِيسِ ٱلَّذِي سَجَّاهُ إِسْكَافِيُّونَ عَلَى أَكْبَرِ سَنَادِينِهِمْ، وَشَيْءٌ عَنْ سَحَائِبَ بِيضٍ تَفْلِتُ مِنْ أَزْرَارِ نِسْوَةٍ لَمْ يَطُلْ عُرْيُهُنَّ وَيَسُوقُهَا أَصْهَارٌ يَرْتَعُونَ فِي عِلِّيَّاتِهِم، أَوْ أَبْنَاءٌ سَلَّمُوا ٱلسُّدَّةَ لِأَخْوَالِهِم وَلَا نَنْسَى ذَلِكَ ٱلعُقْبَ ٱلَّذِي أَفْسَدَ حَتَّى دَمَ ٱلمَاشِيَة

وَحِينَ يُرْوَى ذَلِكَ لَنْ يَجِدَ مَنْ يَحْتَمِلُهُ وَسَيَتَبَدَّدُ عَلَى التَّوِّ شَعْبُهُ ٱلهَجِينُ فِي مَنَازِلِهِ وَزَوَارِيبِهِ كَٱلمَطَر

صيدا ـ ١٩٨٥

حجرات

- ١ -

وَأَقُولُ وَدَاعاً لِهَذِهِ ٱلحِجَارَةِ
ٱلَّتِي خَرِفَتْ
إِسْوَدَّتْ دُفْعَةً وَاحِدَةً
تِلْكَ الصُّخُورُ ٱلَّتِي جَرَيْنَا عَلَيْهَا
لَنْ نَقُولَ إِنَّ الرِّيحَ حَمْقَاءُ أَيْضاً
وَهِيَ تَجْرِي فَوْقَهَا
أَلبَحْرُ يَلْحَسُهَا
سَيَحْدُثُ ذَلِكَ دَائِماً
أَلبَحْرُ يَلْحَسُهَا وَٱلهَوَاءُ يَتَشَمَّمُهَا
بِلا ٱنْقِطَاع

- ٢ -

أَلْمَطَرُ يَقَعُ بِلا آكْتِرَاثٍ
عَلَى حَيَاتِي
آلْمُضَاءَةِ دَائِماً كَالزَّنْزَانَةِ
إِنَّنِي أُغادِرُهَا آلآنَ
لَمْ يَعُدْ لِي مِنْهَا سِوَى آلبَابِ
لَمْ أُداوِمْ عَلَى سُكْنَاهَا
كَانَتْ لِي مَنَازِلُ أَصْدِقَائِي
مُنْذُ تِلْكَ آلْلَّيْلَةِ
لَمْ أَعُدْ بُسْتَانِيَّ حَيَاتِي
ظَلَّ آلعُشْبُ الضَّارُّ
يَنْبُتُ مِنَ آلعُشْبِ
وَلَمْ يَقْتَلِعْ أَحَدٌ آلحَمَاقَاتِ
آلَّتِي عَصِيَتْ جُذُورُهَا
لَمْ أَعُدْ بُسْتَانِيَّ حَيَاتِي
إِنِّي أَتْرُكُهَا لِنُزَلاَءَ مُسْرِعِينَ
وَأَصْدِقَاءَ
آسْتَحَقُّوهَا بِخِيَانَاتِهِم

- ٣ -

أَلمَطَرُ يَقَعُ أَيضاً
وَٱلأَرْضُ مَلْسَاءُ تَحْتَ فُرْشَاتِهِ
أَلصُّخُورُ لامِعَةٌ بِلُعَابِ ٱلبَحْرِ
أَلنَّهَارُ أَمْلَسُ تَماماً، أَصْلَعُ
بِالضِّحْكَةِ ٱلمَلْسَاءِ لِلْبَحْرِ
وَأَنَا فِي أَرَقِي عَلَى سَرِيرِ ٱلفُنْدُقِ
أَنْظُرُ بِٱلإِبْتِسَامَةِ ٱلخَالِيَةِ لِلْبَحْر

- ٤ -

وَدَاعاً لِتِلْكَ ٱلقَلْعَةِ
ٱلَّتِي أَزالُوهَا مِنْ جِيلَيْن
وَمَا زَالُوا يَدُورُونَ مَكَانَهَا
وَدَاعاً لِلأَسْفَلْتِ
شَعْرَتِي ٱلأَكْثَرُ طُولاً
لِلْحَسَاءِ ٱلَّذِي شَرِبْتُهُ مِنْ رِوَايَةٍ رُوسِيَّةٍ
لِلْمِذْيَاعِ ٱلَّذِي يَنْبَعِثُ مِنْ حَيَاةٍ ما
لَمْ تَتَوَقَّفْ فِي جِوَارِي

- ٥ -

كُنَّا مَرْضَى كَمَنَازِلِنَا
آلمَبْحُوحَةِ دَائِماً
مَرْضَى قَليلاً كَحَيَوَانَاتِنَا
كَانَتْ بُيُوتُنَا خَلْفَ آلعَالَمِ
حَيْثُ آلمَاءُ أَصْفَرُ قَبْلَ وِلاَدَتِنَا
كَانَتْ خُرُوقُنَا وَطَنَابِرُ سُعَالِنَا
نَدْفَعُهَا أَبْعَدُ
فِي طُرُقَاتٍ مِنْ صَفِيرِنَا
وَخِيطَانِ بَوْلِنَا
وَنُهَاجِرُ عَلَى ظُهُورِهَا

إِنَّنا نَرْفَعُ رُؤوسَنَا
عَنِ الرُّكْبَةِ
آلَّتِي خَرَجْنَا ذَاتَ يَوْمٍ مِنْهَا
نَتَحَسَّسُ كَوَاحِلَ آبائِنَا
وَشُهُورَ مَرَضِهِمْ
آلمُوَزَّعَةَ عَلَى أَبْراجِ حَيَاتِنَا
نُدَوِّرُ أَحْجَارَنَا
وَتِلْكَ النَّارُ آلَّتِي تَتْبَعُنَا كَآلخَرْقِ
تُذَكِّرُنَا فِي الضَّوْءِ آلمُهَلْهَلِ
كَيْفَ كَانُوا يُدِيرُونَ آلعَجَلاَتِ
وَبِآلبُطْءِ ذَاتِهِ
يُوَجِّهُونَ نُعَاسَنَا

لَقَد آنفَصَلْنَا أَيضاً كَآلخَرْقِ
حِينَ كَانَ السَّقْفُ يَتَمَزَّقُ بِلا آنْقِطَاعٍ
تَارِكِينَ آلحُجُرَاتِ تَنْهَضُ كَآلعُجُولِ
حِيْنَ آلحُجُرَاتُ نَفْسُهَا تَلِدُنَا ثَانِيةً
وَآلأَكْتَافُ آلقَوِيَّةُ تَتَقَوَّسُ لِلرَّحِيل

هَذَا ٱلبَيْتُ ٱلَّذِي سَحَبْتُ قَائِمَتِي مِنْهُ
يَعْرُجُ دُونَ أَنْ يَقَع
أَبي وَأَصْدِقاؤُهُ
يَخْرُجُونَ تَحْتَ أَكْتَافِهِمْ
لَقَدْ لَبِثُوا هُنَا
بَعْدَ أَنْ لأَمُوا جُرْحَ غِيَابِهِم
تَحْتَ السَّقْفِ ٱلَّذِي بَقِيَ أَكْثَرَ ٱنْخِفَاضاً
وَالسِّتَارَةُ لاَ تَزَالُ صَفْرَاءَ
مِنْ ذَلِكَ ٱلحِيْن

أَلْهَوَاءُ لاَ يَهُبُّ مِنْ أَمْكِنَةٍ مَجْهُولَةٍ
إِنَّهُ هُنَا لَنْ يُغَادِرَ
كَغُلاَلَةٍ خَلَعُوهَا
أَلظِّلُّ ٱلَّذِي بَقِيَ عَلَى وَسَائِدِهِمْ
أَخَّرَ ذَلِكَ الصَّبَاحَ عَنْ الظُّهُورِ
وَلاَ يَزَالُ لِلآنَ
يَتَرَدَّدُ عَلَى ٱلأَدْرَاجِ
وَالسِّرَاجُ
خَيْطُ دُخانٍ وَخَيْطُ عِطْر

تَرَكُوهُ وَرَاءَهُمْ
إِنَّهُ الضَّوْءُ ٱلعَالِقُ فِي ٱلحَافَّةِ
لَا يَزَالُ فِي ٱلخِدْمَةِ
مُنْذُ شَحَّ قَلِيلاً
عَلَى أَسِرَّتِهِمْ

مَرَضُهُمُ الطَّوِيلُ يَكْسِفُ ٱلحُجْرَةَ
وَيَصْبُغُهَا بِلَوْنٍ دُخَانِيٍّ
لِسَائِلٍ لَا يُرى
رُبَّما ٱخْتَفَى لَكِنَّهُ ظَلَّ يَابِساً
فِي ٱلقُمْصَانِ وَالشَّراشِفِ
كَأَنَّهُ يُنَشِّيهَا

لَقَدْ رَبَّيْنَاهُ أَشْهُراً طَوِيلَةً
وَهَا هُوَ بَعْدَ أَنْ نَجْمَعَهُ مِراراً
يَبْقَى حَيّاً كَٱلإِكْسِيرِ
وَيُؤَخِّرُ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ رَحِيلَهُمْ

أَلوَدَاعُ ٱلَّذِي طَالَ
إِلَى أَنْ لَمْ يَقَعْ
أَلمَوْتُ ٱلَّذِي لَمْ يَجِدْ شَيْئاً

عَلَى هَذِهِ ٱلحِجَارَةِ الدَّاكِنَةِ سَقَطْنَا
وَٱبْتَدَأَتِ ٱلحَيَاةُ مِنْ هُنَاك
رُبَّما سَقَطْنَا كَٱلحِجَارَةِ
مِنْ نُورِ تِلْكَ ٱلحُجُرَاتِ
أَوْ خَرَجْنَا لامِعِينَ كَالدِّيْدَانِ
مِنْ ذَلِكَ ٱللُّعابِ
ٱلَّذِي بَقِيَ لِلآنَ
جَافّاً عَلَى أَجسَامِنَا

كَانَتْ هُنَاكَ حَفْنَةُ رَائِحَةٍ
دَائِماً فِي ٱلأَسْفَلِ
رَائِحَةٌ كَأَعْشَاشٍ مَطْمُورَةٍ
نَدُوسُهَا وَلَا نَنْتَبِهُ
رَائِحَةُ مَاشِيَةٍ وَسِفَاد
سَبَقَتْنَا
وَهَا نَحْنُ كُلَّمَا خَطَوْنَا
نَشْعُرُ بِهَا تُنْزَفُ تَحْتَ عُشْبَةٍ
وَنَحْدُسُ
أَنَّهَا لَا تَزَالُ تَحْبِسُنَا هُنَاك

نَمَوْنَا تَحْتَ سَحَابَةِ الطَّهْوِ
وَدُخَانِ السَّرْدِين
أَلْبَحْرُ ٱلَّذِي يَرْتَفِعُ أَيَّامَ حَيْضِهِ
يَفُوحُ دَماً ومِلْحاً قَوِيَّيْنِ
أَلأَرْضُ مَسْلُوخَةٌ أَوَّلَ ٱلمَطَرِ
سَائِلُهَا السُّخْنُ يَغْمُرُنَا فِي النَّوْمِ
وَهَذَا ٱلإِسْطَبْلُ ٱلَّذِي هَبَّ فَجْأَةً مِنْ جَنْبِهَا
نَخْرُجُ أَيْضاً مِنَ ٱلحَمَّامِ ٱلقَمَرِيِّ
دُوْنَ أَنْ نَنْتَبِهَ
إِلَى أَنَّ ٱلحُمْرَةَ ٱلَّتِي دَبَغَتْنَا
لَنْ تَزُولَ سَرِيعاً
وَأَنَّنَا نُدَشِّنُ السَّهَرَ ٱلأَوَّلَ ٱلكَبِيرَ
لِجُلُودِنَا

كُنَّا نَجِدُ نُتَفاً مِنْ شَيْبِ أُمَّهَاتِنَا
مُتَخَلِّفَةً فِي كُلِّ مَكَان
وَنَنْظُرُ إِلَى خِرَقِهِنَّ الطَّرِيَّةِ حَدِيثاً
خَائِفِينَ مِنْ أَنْ نَكُونَ حَقّاً
لَا نَزَالُ فِيهَا

كُنَّا نَخْرُجُ مَدْهُونِينَ بِدُمُوعِ أُمَّهَاتِنَا
لَا نَبْتَعِدُ كَثِيراً عَنْ سَائِلِهِنَّ
وَحِينَ نَعُودُ
نَجْلِسُ فِي هَالَةِ ٱلمِصْبَاحِ
وَٱلحُجْرَةُ حَوْلَنَا
مَنْبُوشَةٌ مُظْلِمَةٌ
كَعَانَةٍ كَبِيرَة

نَنْهَضُ فَنَرَى ٱلفِرَاشَ شَاغِراً
وَنَجِدُهُنَّ فِي أَسْفَلِ ٱلحُجُرَاتْ
نَسْبَحُ فِي الصَّبَاحِ ٱلمُتَرَامِي حَوْلَهُنَّ
كَٱلبَزَّاقِ
وَنَلْعَبُ عَلَى أَطْرَافِ أَثْوَابِهِنَّ

تِلْكَ ٱلعَنَاكِبُ ٱلكَبِيرَةُ تَحْتَ ٱلإِبْطَيْنِ
وَبَيْنَ السِّيقَانِ
ٱلَّتِي نَعْبُرُ مِنْهَا إِلَى ٱلحَدِيقَةِ
وَٱلَّتِي دَفَنَّا فِيهَا إِبْهَامَنَا
إِنَّنَا نَجِدُهَا كُلَّمَا قَلَبْنَا حَجَراً
وَفِي الصَّبَاحِ
نَرَاهَا مُحْمَرَّةً عَلَى جُلُودِنَا

وَذَلِكَ النَّفَسُ ٱلمُسْتَوِي
ٱلَّذِي تَأَرْجَحْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلقَاعِ
حِينَ كَانَتِ ٱليَدَانِ الشَّاهِقَتَانِ
مِنَ ٱلأَعْلَى
فِي ٱلحُجْرَةِ ٱلَّتِي ٱسْتَحَالَتْ قِدْراً مَدْهُونَةً
تَغْزُلَانِ الشَّعْرَ ٱلمُسْتَرْسِلَ إِلَى ٱلأَرْضِ
وَتَقْلِبَانِ أَجْسَادَنَا وَتَراً وَتَرا
عَلَى ٱلوِسَادَةِ
ٱلَّتِي يَأْخُذُنَا فَوْقَهَا صَفِيرُ ٱللَّيْلِ

وَتَطْبُخَانِ النَّهَارَ ٱلَّذِي لَا يَتَأَخَّرُ
إِنَّهُنَّ ٱلآنَ يُحْيِينَ بِدُمُوعِهِنَّ
ٱلخِرَقَ ٱلكَبِيرَةَ
شَقِيقَةَ جُنُونِهِنَّ

هَلْ كَانَتْ ٱلعَنَاكِبُ وَحْدَهَا
فِي ٱلقِفَفِ ٱلكَبِيرَةِ
أَمْ أَنَّنَا وَنَحْنُ نَجْمَعُهُنَّ عَنِ ٱلمَصَاطِبِ
مَعَ صُرَرِهِنَّ
أَوْ نَجِدُهُنَّ يَهْذِينَ بَيْنَ ٱلأَوَانِي
تَرَكْنَا عَمْدَاً
ذَلِكَ النَّسِيجَ ٱلكَامِلَ لِوُجُوهِهِنَّ
كَمِنْدِيلٍ مَنْقُوشٍ ، كَمِنْدِيلٍ رَطِبٍ
لِلْحِجَارَةِ ٱلَّتِي تَتَقَدَّمُ
وَتَلْحَسُ نَصِيبَهَا
مُتَآخِينَ بِصَمْتٍ
مَعَ حَشَرَاتِ ٱلجُدْرَان

- ٩ -

لَسْتُ بُسْتَانِيَّ حَيَاتِي
إِنَّنِي أَهْجُرُهَا ٱلآنَ
لَمْ يَعُدْ لِي مِنْهَا سِوى ٱلبَابِ
لَمْ أُدَاوِمْ عَلَى سُكْنَاهَا
كَانَتْ لِي مَنَازِلُ أَصْدِقَائِي

ليماسول ـ ١٩٨٦

للشاعر

الوقت بجرعات كبيرة
١٩٨٢ ـ دار الفارابي

صـور
١٩٨٥ ـ توزيع مؤسسة الأبحاث العربية

زوار الشتوة الأولى
مسبوقاً بـ
صيدا الأمثال
يليه
مدافن زجاجية
١٩٨٥ ـ دار المطبوعات الشرقية

نقد الألم
١٩٨٧ ـ دار المطبوعات الشرقية

خلاء هذا القدح
١٩٩٠ ـ دار الجديد